تاريخ العـــرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

المستشرق الانجليزي

المدخل لتاريخ العرب

— ٣ —

٥ — من الفتح المغولي الى اليوم (من ١٢٥٨ —)

انتهى عصر الخلافة بسقوط بغداد عام ١٢٥٨ م في يد المغول الرحّل الذين كانوا تحت زعامة هولاكو . وما كادوا يتقدّمون إلى الأمام حتى صدهم المماليك المصريون وردوهم على أعقابهم إلى فارس التي اعتنقوا فيها الاسلام بعد زهاء خمسين عاماً ، أما الخانات خلفاء هولاكو فقد حكموا في فارس

ثم أغار على آسيا الغربية فريق من البرابرة بقيادة تيمور واندفعوا كالأتي المزبد ، ونشروا الفساد والفوضى في ربوعها (١٣٨٠ — ١٤٠٥ م) وإذ ذاك تفككت رابطة الاسلام من الناحية السياسية . وفي هذه الفوضى الضاربة بأجرانها نشأت ثلاث أمبراطوريات اسلامية . ففي سنة ١٣٥٨ عبر الأتراك العثمانيون البسفور ودخلوا القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، حتى إذا كان عام ١٥١٧ دخلت في حوزتهم سورية ومصر وبلاد العرب وأصبحت فارس مملكة مستقلة تحت حكم الصفويين (١٥٠٢ — ١٧٣٦) بينما أسس بابُر وهو من ولد تيمور — امبراطورية التتر العظمى والهند ، وظلت قوية الشوكة تحت خلفائه وخاصة أكبر وأورنجزيب (١٥٢٥ — ١٧٠٧)

أما الحوادث السياسية التي أجلناها آنفاً فسنعالجها بالتفصيل في صلب هذا الكتاب ؛ على حين أن غيرها لن يكون نصيبه منا سوى الاشارة الموجزة والنظرة العابرة . ولما كانت الآراء التي انتشرت في الأدب العربي شديدة الارتباط بتاريخ الناس ولا سبيل الى فهمها بعيداً عن الحوادث الخارجية التي نشأت فيها ، فقد وجدت نفسي مضطراً إلى الأسهاب في بعض النواحي التاريخية حتى يتبين القارىء الحقائق المهمة من وجهة نظرنا الخاصة . كما سيرى أن ليس من إطناب في الكلام عن العصور المتقدّمة السابقة (٥٠٠ — ٧٥٠ م) خاصة إذا علم أن هذه تعد بحور التاريخ العربي ومركزه . وقد بلغت الحضارة الاسلامية أقصى شأوها خلال القرنين التاليين لهذا التاريخ وإن أخذ العرب يتراجعون إلى الوراء سريعاً . وقد طمس الهجوم التتاري — في الغالب — معالم حياتهم الأهلية وإن ظلوا متمسكين في سورية ومصر تحت الحكم التركي بأهداب ثقافتهم كما نراهم يستميتون في الكفاح باسبانيا ضد النصرانية . وفي أيام ازدهار الدولة العباسية كان أثر العرب الخلص Pur sang في الأدب الذي حمل اسمهم ضئيلاً قياسياً ؛ ولم ألتزم جادّة القياس الوطني وإلا استثنيت جميع الأجانب والمولدين الذين كتبوا بالعربية . أما الفرس الذين ألفوا حتى يومنا هذا استعمال الضاد في كتاباتهم الدينية أو الفلسفية فيمكن القول بأن عملهم لا يصور تاريخ الفكر العربي ؛ ومن ثم كان من الضروري دراستها معاً كي نصل إلى الغاية المقصودة . ولكن ما ذا يكون موقفنا إزاء هؤلاء المؤلفين الكثيرين الذائعي الصيت الذين ليسوا عرباً أقحاحاً ولا فرساً خالصين ، بل هم مزيج من الجنسين . أترانا نسترجع أنسابهم ونحاول أن نزن أي دم الجنسين أرجح كفة ؟ إن مثل هذه المحاولة يطول أمدها ، وليس من ورائها جدوى . والمؤكد أنه بعد العصر الأموي لا يستطاع وضع حد فاصل صحيح بين العناصر الأهلية والأجنبية الموجودة في الأدب العربي ، فقد امتزج كل منها

إلى الاستغراق ، وقد أتعبني خيري وشري ، وما هما إلا مسكنة وقذارة وغرور

لقد آن لكم أن تقولوا : ما يهمني عدلي ، إن العادل يقدح شرراً ولما أشتعل

لقد آن لكم أن تقولوا : ما تهمني رحمتي ، أفايست الرحمة صليباً يُمسّر عليه من يحب البشر . ورحمتي لما ترفعني على الصليب

أقلتم مثل هذا وناديتم به ؟ ليتني سمعتكم تهتفون بمثله !

إن ما يرفع عقيرته على السماء إن هو إلا غروركم لاخطاياكم ، إن هو إلا حرصكم حتى في خطاياكم

أين هو اللهب الذي يمتد اليكم ليطهركم ؟ أين هو الجنون الذي يجب أن يستولي عليكم ؟

هأنذا أنبئكم عن الانسان التفوق

إن هو إلا ذلك اللهب وذلك الجنون

(يتبع) فليكس فارس

بالآخر امتزاجاً قويا . وإذا كان لا بد من التمييز بينهما إلى أبعد حد مستطاع ، فلابد لنا من اتباع طريقة ضيقة واهية فى عرض التاريخ الأدبى إذا أصررنا على اعتبار كل منهما منفصلاً عن الآخر

الفصل الأول

سبأ وحمير

قد يمكن القول بأن تاريخ العرب يبدأ بما نعرفه عن أهل سبأ ، ولكن لخطوة تمهيدية ينبغى لنا أن نلمّ ببعض الأجناس التى تعرض علينا صورها فى الأساطير والقصص ، والتى يعتبرها المؤرخون المسلمون السكان الأصليين للبلاد . ومن بين هؤلاء قوم عاد وثمود ، أولئك الذين طالما ورد ذكرهم فى القرآن مثلاً للكبرياء والجبروت اللذين أديا بهم إلى التهلكة . وكان موطن « عاد » أرض حضرموت التى تتاخم بلاد اليمن على حدود الصحراء المسماة بالأحقاف . ولايستطاع الجزم أهم من الجنس السامى من سلالة الأراميين الذين أخضعهم وأبادهم الغزاة المغيرون على بلادهم من الشمال أم أنهم — كما يقرّر هومل [1] — يمثلو ثقافة غير سامية خلفت إرم ذات العماد [2] ، تلك الجنة الأرضية التى بناها « شدّاد » أحد ملوكهم . وإن قصّة هلاكهم لتروى على النمط التالى [3] : ذلك أنهم كانوا جبارين ضخام الأجسام ، يعبدون الأصنام ويقترفون شتى الموبقات ، فلما بعث الله فيهم نبيّه « هودا » نصح لهم أن يتوبوا عما اقترفوه من الآثام فقالوا له : (ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء [4]) . ثم نزل قحط شديد بأرض عاد فأرسلوا بعض رءوسهم إلى مكة ليصلّوا عسى أن ينزل القطر ويستقوا ، وإذ بلغت رسلهم مكة لقيهم أمير العمالقة « معاوية بن بكر » بالبشر والترحاب ، ومدّ لهم الموائد ، فشربوا الخمر ودارت بالدفوف جاريتان ذواتا غناء شجى تسمّيان بالجرادتين ، فألهاهم ذلك عما جاءوا من أجله شهراً كاملاً ، فلما حان وقت أوبتهم قام أحدهم ليصلّى ، فلم يكد ينتهى من صلاته حتى حلّقت فى السماء ثلاث سحابات مختلفة الألوان إحداها حمراء والثانية بيضاء والثالثة دكناء ، ثم رنّ صوت من خلف السموات يقول « يا قيل : اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب » فاختار الرسل السوداء ظناً منهم أنها تعجّ بالماء ، وأنها أكثر السحاب فيضا ، وحينذاك أنشد الصوت :

« خذها رماداً رمددا لا تدع من عاد أحدا
لا والداً تترك ولا ولدا إلا جعلتُه هُمدا »

ثم ساق الآله السحابة السوداء حتى حوّمت فوق أرض عاد فانبعثت منها إذ ذاك ريح صرصر عاتية أفنت الناس جميعاً إلا فئة [1] قليلة لبّت نداء هود وأجابته إلى دعوته ونبذت عبادة الأوثان . وإذ ذاك ظهر بطبيعة الحال وعلى ممر الزمن شعب آخر يدعى بقوم عاد الثانية وكان مقره اليمن فى مملكة سبأ ؛ وإن السد العظيم سدّ مأرب لينسب إلى ملكهم لقمان بن عاد الذى تحاك حوله طائفة من الخرافات ، وكان يكنى بذى النسور إذ أوحى إليه أنه سيعمر ويفنى سبعة أنسر كلما مات واحد خلا إلى آخر

وفى شمال بلاد العرب بين الحجاز وسورية سكن قوم ثمود الذين ورد ذكرهم فى القرآن [2] بأنهم كانوا يسكنون مغارات نحتوها فى الجبال . ولا شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يجهل طبيعة هذه البيوت المنحوتة فى الصخور ، والتى لا تزال آثارها قائمة فى الحجر (مدائن صالح) على مسيرة أسبوع من شمال المدينة ، والتى تدل عليها النقوش النبطية [3] التى عثر عليها فى القبور . وقد أخطأت ثمود كما أخطأت عاد من قبل . وتشابهت النهايتان ، فهزأت ثمود من نبيها صالح وأبت أن تطيعه أو يأتى بمعجزة خارقة ، فأطلع لهم صالح من الصخر ناقة ضخمة وفصيلها ، وأمر ثمود ألا تمس بسوء ؛ بيد أن أحد الأئمة الأشرار واسمه « قُدار الأحمر » عقرها وذبحها (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وصارت [4] العرب تقول لكل من باء بجرم كبير ، ولحظ أغبر « أنكد حظاً من عاقر الناقة أو أحمر ثمود » وينبغى أن نشير إلى أن ديودور الصقلى وبطليموس

(١) Die Namen der Säugethiere bei den Südsemitischen Völkern, P. 343 seq

(٢) راجع تفسير الطبرى ج ١ ص ٢٣١ ، وما كتبه O. Loth فى Z. D. M. G. فى المجلد ٣٥ ص ٦٢٦ وما يليها

(٣) راجع تاريخ الطبرى ج ١ ص ٢٣١ والدر رقم ٧ ، ١١ ، ٢٦ ، ٤٦ من القرآن (٤) سورة هود : ٥٢ ، ٥٤

(١) هذه الفئة القليلة التى أشار اليها المؤلف هى بنو اللوذية الذين ذكرهم الطبرى فقال « ... إلا بنى اللوذية المهدى » (المترجم)

(٢) يشير المؤلف إلى قوله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون من الجبال بيوتاً) (المترجم)

(٣) Doughty : Documents epigraphiques recueillis dans le nord de l'Arabie, P. 12 suiv

(٤) إشارة إلى قوله تعالى (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب الله) (المترجم)

قد أشارا إلى وجود آل ثمود ، أما قوم عاد فلا نجد لهم أثراً يذكر فى العصور التاريخية ، على حين أن ثمود قد عاشوا حتى القرن الخامس الميلادى ، وكان أباطرة الدولة البيزنطية يستخدمونهم كفرسان ثموديين Equites Thamudeni فى جيوشهم

وبجانب عاد وثمود نرى العالقة مدرجين بين أهل الفترة ، وقد جاء فى علم الآثار العربية الاسلامية ما ينبىء عن وجود عدة أقوام سلفوا فى عصر بعيد ، كالكنعانيين والفلسطينيين . وإنا لنسمع أن مقر العالقة كان فى تهامة مكة ، وفى بعض أنحاء أخرى من شبه الجزيرة . ويجب أن نشير أخيراً إلى قبيلتى طسم وجديس اللتين لم يدوّن عنهما شيء إلا حقيقة هلكهما ، والدواعى التى أدت إلى ذلك . وإن القصص الخرافية التى أشارت إليهما لا تخلو من لذة بالنسبة لوجودهم فى المجتمع العربى القديم

* * *

أما تاريخ القحطانيين[1] — أو عرب الجنوب — قبل الاسلام فهو تاريخ شعبين : السبأى والحميرى اللذين خلفا زعماء الامبراطورية العربية الجنوبية التى امتدت من البحر الأحمر حتى الخليج الفارسى . وسبأ (أو شبا كما هى فى العهد القديم) تستعمل خطأ إذا قُصِد بها كل بلاد اليمن Arabria Felix ، على حين لم تكن سوى إقليم منها وإن كانت بلا جدال أقوى شكيمة وأعظم أهمية من كل الممالك والأقاليم التى ورد ذكرها فى كتابات الأغريق والرومان القدامى ؛ ومهما بولغ فى عظمتها وثرائها فمن المحقق أن سبأ هذه كانت ذات مركز تجارى ممتاز قبل ظهور المسيح بعدّة قرون[2] . « ولقد قامت السفن منذ زمن بعيد تمخر عباب المياه بين موانى بلاد العرب الشرقية وبين الهند محمّلة بالبضائع ، وكانت منتجات الأخيرة وخاصة الطيب والبخور والحيوانات النادرة (كالقردة والطواويس) تنقل إلى ساحل عمان ؛ ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد كانت لهم دراية بالخليج الفارسى حيث كانوا يبيعون شطر مصر يبيعون لفراعنتها وأمرائها بضائعهم ، وقد كانت صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر سبباً فى تفضيل الطريق البرى للتجارة بين اليمن وسورية ، وكانت القوافل تقوم من « شبوت » فى حضرموت وتذهب إلى مأرب عاصمة سبأ ، ثم تتجه شمالاً إلى مكُرَبة (مكة فيما بعد) وتظل فى طريقها من يترا حتى غزة المطلة على البحر الأبيض المتوسط[1] »

وظل رخاء السبئيين قائماً حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلك عبر البحار على طول شواطىء حضرموت وخلال مضيق باب المندب ، وكانت نتيجة هذا التغير — الذى يظهر أنه حدث فى القرن الأول للميلاد — أن أخذت قوتهم تتضعضع شيئاً فشيئاً ، كما أن جزءاً كبيراً من السكان اضطر للبحث عن مساكن جديدة فى الشمال ، ومن ثم أقفرت مدنهم ونضبت العيون المائية ، وسنرى حالاً ، كيف بلورت القصة العربية نتيجة انحطاطهم الهائل فى حقيقة واحدة تلك هى انفجار سد مأرب

وإن انحاء السبئيين قد أخلى الطريق لظهور جماعة من نفس الجنس يسمون بالحميريين أو كما يسميهم المؤلفون القدامى Homeritœ وتقع بلادهم بين سبأ والبحر ، وتحت حكم ملوكهم المعروفين بالتبابعة أصبحوا قوّة يرهب جانبها فى الجنوب من بلاد العرب . وظل عظم نفوذهم — ولو ظاهرياً — على القبائل الشمالية حتى القرن الخامس بعد الميلاد حينما ثار الأخيرون تحت زعامة كليب ابن ربيعة ، وأزالوا قوة اليمن المسيطرة عليهم فى واقعة تعرف بواقعة « خزازة »[2] ولم يفلح الحميريون كما أفلح السبئيون فان موقعهم البحرى جعلهم عرضة للغارات كما كان جدب البلاد من السكان مضعفاً لقوتهم الحربية . وقد قام الأحباش — وأصلهم من مستعمرى اليمن — بمحاولات عدة لتثبيت أقدامهم ، وكانوا يتخذون عادة حكاماً قد نفاهم أمراء وطنيون ، ومن أشهر الولاة الأحباش « ابرهة » الذى سنقص خبر مهاجمته الفاشلة لمكة فى موضعها الخاص ، وانتهى الأمر بأن وقعت امبراطورية حمير أخيراً تحت حكم فارس ولم تقم لها قومة سياسية مدة قرن من الزمان قبل ظهور الاسلام

ترجمة حسن عيسى

(١) فيما يتعلق بالنقوش السبئية والعربية الجنوبية يمكن للقارىء أن يقرأ ما سيكتبه J. Tkatsch فى مقالة « صنعاء » بدائرة معارف الاسلام ففيها معلومات قيمة ، ويشير الكاتب فيها إلى أهمية المكتشفات الخطية التى أماط اللثام عنها F. Glaser الذى جمع فى خلال أربع رحلات (١٨٨٢ — ١٨٨٤) ما ينيف على ٢٠٠٠ مخطوط . راجع أيضا :
P. Nielsen: Handbuch der Altaranbischen Altertumskunde. Vol, I (Copenhagen and Paris 1927)

(١) إن أقدم وثيقة تاريخية يمكن الاشارة اليها وجدت مكتوبة بالخط المسمارى الأشورى وتقرأ فى تاريخ الملك سرجون ٧١٥ ق . م . « لقد استلمت جزية فرعون ملك مصر وشمسى ملكة بلاد العرب وأثمرة السبأى من الذهب والطيب والعبيد والخيل والابل » وأثمرة مرادفة ليثمر وهو لفظ تسمى به كثير من ملوك سبأ

(١) A. Müller : Der Islam in morgen und Abendland, P. 24

(٢) ومع ذلك فان ذلك يقول (فى المعلقات الخمس Funf Mo'allaqat ج ١ ص ٤٤) إن الأخبار التى تنبئ أن كليبا كان يقود فرسان ربيعة إلا تزال قوى اليمن المتجمعة ليست تاريخية مطلقا